

مقتطفات مترجمة من كتاب

Jens Soentgen
Selbstdenken!
Zwanzig Praktiken der Philosophie
Mit Illustrationen von Nadia Budde
Peter Hammer Verlag
Wuppertal 2003
ISBN 3-87294-943-8

الصفحات: من 9 إلى 21 ومن 167 إلى 177

ينس زونتجن
أعمل فكرك
20 تطبيقاً للفلسفة

ترجمة: رشيد بو طيب

مقدمة

كانت هناك جماعة ضمن أطباء العصور القديمة حملت اسم المنهجيين. لقد كانوا عقولا جد منظمة، كما يفصح عن ذلك اسمهم. إنهم أرادوا أن يخرجوا بالطب من الفوضى إلى النظام. لماذا كل هذا العدد الكبير من طرق العلاج والأدوية والأعشاب الطبية؟ لقد اعتقد المنهجيون أنه بالإمكان علاج كل الأمراض بطريقة واحدة. فكرة عبقرية! ولكن فيما تتمثل هذه الطريقة الموحدة والرائعة؟ إننا للأسف، لا نعرف هذا بدقة، ذلك لأن المنهجيين قد اختفوا كلياً من الساحة بعد أن سطع نجمهم لوقت قصير، حتى أن تأثيرهم وصل إلى البلاط الروماني. وكذلك في ميدان الفلسفة وأيضاً في وقت مبكر، أي في العصور القديمة، كان هناك رأي يقول أن كل الأسئلة الفلسفية يمكن معالجتها جيداً بطريقة واحدة. لكن المنهجيين في ميدان الفلسفة لم ينقرضوا البتة فبخلاف ما حدث للمنهجيين في ميدان الطب. بل الأرجح أنه حتى يومنا هذا يتم التصريح باستمرار بأنه قد تم أخيراً اكتشاف المنهجية الفلسفية، وأنه إذا تم تطبيقها، فإن تقدماً كبيراً سيعم كل المجالات. وفي السنين المائة الأخيرة، تم طرح العديد من المناهج، منها على سبيل المثال الاختزال الظاهراتي، الهيرمينوطيقا أو أيضاً التحليل المنطقي. وكلما كان الاسم أكثر غرابة، كلما كان ذلك أفضل. وحيثما كان المنهج غير ملائم، أُعتبر الموضوع، وبلا تردد، غير ذي معنى.

لكن الحقيقة هي أن المرء لا بد له في ميدان الفلسفة أيضاً كما هو الحال في ميدان الطب، من أن يعمل بالعديد من الطرق. وإذا ما تأملنا النقاشات الفلسفية، فسندكتشف تنوعاً في التطبيقات: والباروديا (المحاكاة) تنتمي أيضاً إلى هذه التطبيقات، شأنها في ذلك شأن منهجيتنا التعريف والتمييز. ترتبط هذه المنهجيات ببعضها البعض، لكن الروابط ليست قوية للدرجة التي لا يمكن معها تطبيق منهجية ما في استقلال عن المناهج الأخرى. وقد كُتبت كل فصول هذا الكتاب بطريقة تسمح بقراءة كل واحد منها على حده. فبخلاف المنهجية، فإن التطبيق لا يشترط وجهة نظر خاصة تحدد له الاتجاه. فالتطبيق تكفيه ظروف معينة، وليكن مثلاً، رأي ما صاغه أحدهم. إن التطبيقات يمكن أن تتم في أي مكان يحدث فيه نقاش حول أفكار ما،

سواء تعلق الأمر بنقاش فلسفي حول معنى الحياة أو بتعليق سياسي في جريدة أو بخلاف عائلي حول مكان قضاء العطلة القادمة.

نشر أرسطو المجموعة الأولى من هذه التطبيقات (322-384 ق.م) وأسماها Topik، وتعدّ هذه إحدى كتاباته الأولى. وهي عبارة عن تدريب للفكر، ألفها من أجل استعماله الشخصي. عندما كتبها أرسطو كان بعد شاباً في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره، وكان يحاول فهم الحوارات الدائرة في أكاديمية أفلاطون التي التحق بها. وقد جمع نماذج للتفكير والاستدلال التي تتكرر في مواقف كثيرة، وذات فائدة في نقاشات عديدة بغض النظر عن الموضوع. لقد أطلق على هذه النماذج اسم Topoi. وكلمة Topos تعني المكان أو المنطقة. ويُقصدُ بها مجازاً أنها منطقة للأفكار، من المفيد للمرء أن يلقي عليها نظرة.

وفي مؤلفه Topik توجد حوالي ثلاثمائة من هذه النماذج. ولما أصبح أرسطو نفسه معلماً، استعمل هذا الكتاب في درسه. وهو عبارة عن مدخل إلى الفلسفة وفي نفس الوقت مدرسة للثقافة. ذلك أن المثقف عند الأثينيين لم يكن الشخص الذي يعرف الكثير. لقد كانوا يطلقون كلمة مثقف على الشخص الذي يتميز بحركية فكره، والذي بمقدرته أن يُكوّن رأياً خاصاً به حول أي موضوع، وأن يطور أفكاراً وحججاً جديدة وأن يتعامل مع الأفكار بمرونة، بدلاً من ترديدها ترديداً أعمى. ويعتبر كتاب أرسطو: Topik كتاب صعب الفهم بالنسبة للقارئ اليوم، حيث إنه مكتوب بأسلوب التلغراف المكثف والمتقطع، ذلك الأسلوب الذي يميز الكتب التعليمية لأرسطو. وعلاوة على ذلك فقد راعى أرسطو التطبيقات التي تتعلق بتعريف مفهوم معين. وذلك لأن هذا الموضوع كان يحثل مكان الصدارة في أكاديمية أفلاطون. كما أن أرسطو قد عمد إلى توضيح نماذجه بأمثلة يتعين فك رموزها أولاً حتى يتسنى فهمها، حيث أنها تقوم على معرفة وأفكار أصبحت غريبة بالنسبة لنا. ولهذا السبب فقد حان الوقت لتأليف مجموعة جديدة، ألبوم متنوع، يشرح كيف يشتغل الفكر. إن الأمر هنا لا يتعلق بمعرفة، وإنما بالقدرة الفلسفية. وليس إنتاج حجج أو تقديم أطروحات هو مهمة هذه القدرة. ولكن الأمر يتعلق بالأحلام والخيال، وهو أشبه ما يكون بلعبة مسلية تحفز الآخرين على المشاركة فيها. لقد نشأ الألبوم بطريقة مشابهة جداً لتلك التي نشأ بها كتاب أرسطو: من روح النقل. ماذا يفعل الفلاسفة حين يتفلسفون؟ فإذا ما تأملنا النقاش الفلسفي، فسنرى أن الصورة المعتادة لعملية الانتقال النسقي والمنهجي من أطروحة إلى أخرى، هي صورة خاطئة. فإننا بالأحرى

سنكتشف أن الأمر أشبه بذهاب وإياب في كل اتجاه كما هو الحال في احتقال شعبي. فهنا لا يتعلق الأمر فقط بالمحاضرة والتوضيح، ولكنه يتجاوز ذلك إلى بالصخب والضحك والغناء وصب اللعنات.

إن الفكر ليس منعدم العاطفة كما يبدو أحياناً، بل إن تنوعاته تدهش العقل ولا يمكن عرضها جميعاً. لذلك فإن التطبيقات التي سنعرضها ليست إلا مختارات قليلة. وإذا ما تنبهنا إلى النماذج، فسيسهل علينا العثور على نماذج أخرى. كما سيمكن اكتشاف الارتباطات العرضية بين هذه التطبيقات، ذلك أنه بالرغم من أن كل تطبيق سيتم عرضه على حده، إلا أنها مرتبطة ارتباطاً ببعضها البعض وثيقاً. لقد اقتبسنا أمثالتنا من الخطابات السياسية وبعضها من الأدب وأغلبها من الحياة اليومية. لذلك فلن يظهر في الحوارات التي عمدت من خلالها إلى توضيح هذه التطبيقات اسم سقراط فقط، ولكن أيضاً أسماء مثل السيد والسيدة مائر.

إن الألعاب والخيالات التي تتخلل فصول الكتاب، تبين أنه يمكن للمرء الاقتراب من الفلسفة في خفة ويسر. أما فيما يخص المراجع، فقد اقتصرنا على الحد الأدنى. فقد أشرت في نهاية كل فصل إلى بعض النصوص المفيدة لكل من يريد أن يواصل الاهتمام بالموضوع المطروح.

كل التطبيقات تهدف إلى التقليل من التبعية لأراء الآخرين. إنها تفتح منابع للخواطر والأفكار وتشجذ القدرة الحكم. وهنا تكمن قوتها المحررة. إنها تقوي القدرة على التفكير الذاتي.

1- الاستقزاز

كانت الفلسفة منذ بداياتها شكلاً من أشكال الاستقزاز. ولقد اعثر سقراط (399-470 ق.م) مثلاً، فضيحة علنية. فمظهره الخارجي الفقير كان مستقزاً. وبعكس تلاميذه الذين كانوا غالباً أغنياء، لم يكن يضع أية زينة وكان يمشي حافياً، مما عاد عليه مرات بالاعجاب ومرات أخرى بالسخرية كما أنه كان يشكك في القيم المتعارف عليها مثل النجاح أو الرخاء أو يسخر منها. وعندما وجهت له تهمة العيب في الذات الإلهية وحكم عليه، رمى المحكمة بالعجز بدلاً من أن يدافع عن نفسه في تضرع، وطالب بتكريم بدلاً من عقوبة، معللاً ذلك بأن عمله مع

الشباب هو نعمة بالنسبة لأثينا. ولم تجد المحكمة هذا الأمر مسلياً، فحكمت عليه بالإعدام بشرب السم.

لكن تاريخ الاستفزاز لم ينتهي بهذا الحدث. فقد بلغ ذرى جديدة عند أتباع سقراط. وكانت جماعة الكلبين الصغيرة تنتمي إلى هؤلاء. فقد أصبح رجل يدعى أنيستينس (360-455 ق.م)، الذي كان جد معجب بقناعة سقراط الذي تعرّف عليه شخصياً، مؤسس لهذا المذهب. لكن تلميذه ديوجين (328-400 ق.م) هو الذي منح هذه الجماعة مجداً أبدياً. لقد صنع من قناعة سقراط البسيطة شيئاً ملفتاً للأنظار. فمن تعاليم ديوجين أن المرء عليه أن يسد حاجاته دائماً بأبسط الوسائل. وهكذا كان يعتقد أنه اكتشف أقصر السبل إلى السعادة. أما في الحياة العملية، فإن الأمر كان يبدو كما يلي: فديوجين كان يستمني علانية في سوق أثينا وهو يردد أنه لمن المؤسف أن المرء لا يستطيع أن يسد جوعه أيضاً بتلك الطريقة البسيطة، من خلال تدليك البطن.

لم يملك ديوجين بيتاً، ولكنه كان ينام مرة هنا ومرة هناك، أينما كانت تسير به الأقدار. وكما تقول الروايات إنه كان يسكن، ولزمن طويل، في أحد الأواني الفخارية التي كانت مخصصة للتخزين، وكانت في طول البشر، والتي اشتهرت باسم برميل ديوجين. وهناك صورة تظهره في برميله هي الصورة الوحيدة التي نعرفها عنه: وهي عبارة عن مداليون في وسط فسيفساء، ومحفوطة بالمتحف الروماني - الجرمانى بكولونيا. وكان ديوجين يتغذى على الأعشاب والزيتون وخبز الشعير. وكان يرتدي معطفاً من الصوف، وما عدا ذلك فقد كان عارياً. وقد أحب أن يشير للآخرين إشارة بذيئة بأصبعه الوسطى، وسبق بذلك جزءاً من ثقافة البانك Punk. وكان يحب الضراط بين الحين والآخر في حضور الآخرين مما دفع الأثينيين إلى تسميته بالكلب. ذلك أن الكلب بالنسبة إليهم هو من يتبول في أي مكان، ويتغذى على بقايا الموائد ويمارس الجنس على الملأ؛ أي أنهم كانوا يعتبرونه الحيوان الأكثر حقارة. اعتبر ديوجين هذه الشتيمة لقباً شرفياً له. وبعد وفاته، شيد تلامذته نصبا تذكاريًا له، يعتليه كلب. وهكذا أصبح هذا الحيوان رمزاً لكل المدرسة، حيث أن كلمة Kyniker مشتقة من الكلمة الإغريقية Kynikos، والتي تعني كلبى. ومنها اشتق فيما بعد اسم الصفة Zyniker (كلبي). لكن الكلبى اليوم ليس أكثر من متهم خبيث. أما كلبى العصور القديمة فقد كان أيضاً

فيلسوفاً، وكان يريد أن ينظر الناس إلى أعماله على أنها مساهمات في النقاشات الفكرية وشكلا من أشكال الاحتجاج.

اشتهر ديوجين بخفة ظله وسرعة بديهته. ولما زاره الاسكندر الأكبر (322-356 ق.م) وسأله أن يتمنى عليه، هو الملك العظيم، ما يريد، غمز ديوجين بعينه فقط وقال: "ابتعد، إنك تحجب عني الشمس". لكنه مع ذلك لم يكتف فقط بالأقوال. لقد كتب ديوجين مسرحيات تراجيدية، وطبعاً دائماً بلمسة كلبية، ويقال أيضاً أنه ألف كتاباً يحمل اسم "السياسة". وفيه قلب كل الأعراف المتوارثة رأساً على عقب وكان رأيه أن المؤسسة التي تقوم على أساسها الدولة ألا وهي الزواج ما هي إلا عادة لا بد من إلغاؤها. وكبديل لذلك، اقترح إدخال نظام الممارسة الحرة للجنس، الذي يعني حرية الجميع في ممارسة الجنس مع من يحبون، مثل أن يمارس الجار الجنس مع الجارة، و أيضاً الابن مع الأم أو حتى الابن مع الأب. بالطبع سوف تقود هذه الممارسة الحرة للجنس إلى مشاكل، لكن ديوجين، بفكره الثاقب، لم يغفل هذا الأمر. فقد أوضح أنه بما أنه داخل جماعة تمارس الحب الحر لا يمكن للمرء أن يحدد انتماء طفل ما لشخص بعينه، إذن فإنه مسموح للجميع أن يعتبروا أنفسهم آباء وأمهات وعليهم تبعاً لذلك أن يشتركوا جميعاً في التربية. كما أنه يرى أيضاً أنه لا غضاضة في أكل لحم الموتى، وأوعز بقانون يسمح للأبناء بقتل آبائهم.

وقد أخذت مسرحياته التراجيدية أيضاً نفس هذا الاتجاه. ورغم أن تلك المسرحيات لم تبقى محفوظة لنا حتى اليوم، إلا أنه بمقدورنا، اعتماداً على ملاحظات كتّاب العصور القديمة، أن نعيد تكوينها إلى حد ما، ونفتقي موضوعاتها. وهكذا، فإن الروايات تشير إلى أنه كتب مسرحية تحمل اسم أوديب. فمن المعروف في الصياغة الكلاسيكية أن أوديب لما اكتشف أنه ضاجع أمه، ففأ عينيه. أما ديوجين، وبالعكس ذلك، ولأنه كان يرى أن ممارسة الجنس مع أقرباء الدم أمر ليس محرماً، فقد أعطى القصة اتجاهها إيجابياً. فحقيقة أن ينام ابن مع أمه لا يمثل بالنسبة إليه أمراً تراجيدياً، بل هو أمر محمود. إن علينا أن نتصور أوديب ديوجين كأحد ممثلي فلسفة "الم لا؟".

وفي مسرحية كلبية أخرى، تُروى لنا أحداثها، يعترف أحد شخصياتها أنه قد انتهى للتو من أكل لحم ابنه المطبوخ. وهنا أيضاً يعزينا الكلي بالملاحظة الفلسفية التالية: "وفقاً للرؤية الصحيحة، فإن كل شيء يتضمن كل شيء، وكل شيء ينفذ عبر كل شيء: ففي الخبز لحم

وفي الخضروات خبز، وبالمثل تنفذ كميات في كل الأجساد الباقية، عبر مسام غير مرئية لتتبخر من جديد". وإذا ما كان الأمر كذلك، فإن ديوجين يستنتج أن الاختلاف بين تناول المرء لحم أطفاله وتناوله لأصناف الطعام الأخرى ليس اختلافاً مبدئياً، بل إنه فقط اختلاف في الدرجة. إذن، لا داعي للانفعال.

ما الذي كانت تدور حوله مسرحيات ديوجين؟ لقد، قال موضحاً أنه سك العملة في شكل جديد. وكلمة عملة لها في اليونانية معناً مزدوجاً: فكلمة *nomisma* لا تعني عملة فحسب ولكن أيضاً تقليداً أو طقساً. وبالفعل، فقد قلب ديوجين التقاليد السائدة رأساً على عقب.

كيف تواصلت قصة الاستفزاز هذه؟ إن عصر الجموح الفلسفي انتهى بعد الكلبين. لقد اجتاح الرومان أثينا بعد ديوجين بعدة أجيال. واحتاجت الفلسفة إلى قرون حتى تستريح من ذلك. ثم بدأ العصر الوسيط، الذي شهد بعثاً جديداً للفلسفة، لكن المجال أصبح ضيقاً بالنسبة للفلسفة الكلبية بمعناها القديم. ولنغادر الآن برميل ديوجين، ولننتقل إلى الكمونة 1؛ "جمعية الماويين الشباب" التي تأسست في الستينات ببرلين. وقد تكونت خصوصاً من أعضاء فصيل يساري متطرف ينتمي إلى الاتحاد الاشتراكي للطلبة الألمان SDS. وقد كان برنامج مؤسسي الكمونة مشابهاً لبرنامج الكلبين القدامى: احتجاج، ثورة، حرية جنسية. فعندما سأل أحد الصحفيين مؤسس هذه الكمونة هانس - ديتير كونسلمان عن هدف الكمونة أجاب قائلاً: "إنني أعاني من صعوبات في تخص الجنس، وأريد أن أطلع الرأي العام على الأمر".

لكن الأمر لم يكن يتعلق فقط بمشاكل كونسلمان الجنسي. فتحت شعار: "متى تحترق متاجر برلين"، تظاهر الكمونيون ضد الحرب في فيتنام. ولقد تم فهم هذا الشعار كتحرير على الشغب، فانتهى الأمر بالصديقين فريتس توفيل (كان عمره آنذاك 23 سنة) وراينر لانجهانس (كان عمره آنذاك 27 سنة) إلى المحكمة. لقد حول الاثنان هذه المحكمة أو المحاكمة شيئاً فشيئاً إلى استعراض مسرحي. إذ إن مظهرهما كان كافياً للتدليل عما سيحدث بعد ذلك. لقد ظهر الصديقان في محكمة برلين البلدية بزي غير مألوف ومثير للاستفزاز. حيث بدا راينر لانجهانس بشعره المجعد والمصفف في نوع من المبالغة أشبه بطبيب من سكان غينيا الجديدة الأصليين. كان يرتدي سروال جينز أزرق فاتح وجاكيت لونه أخضر فاتح أزراه برتقالية وله ياقة تشبه ياقة ماو و له كذلك أساور زرقاء. من خلال شعره المجعد وخلف نظاراته المستديرة بدت عيونه غارقة في السوداوية. وفي المقابل ظهر فريتس توفيل في معطف

برتقالي يصل طوله إلى الركبتين تقريباً، أزراه فضية لامعة. في حين أضفت عليه ياقته وأساوره البنفسجية الشبيهة بياقة ماو مسحة مدهشة. وبالقياس إلى ذلك بدا شعره ولحيته متحفظان، وبدت أعينه قريرة راضية أكثر منها عنيدة أو متحدية. وبين حاشية معطفه وبلاط المحكمة كان يسخر من نظام الملابس الغربي: حيث كان يرتدي سروال أسود مخطط، إضافة إلى ذلك جوارب صفراء وحذاء أصفر فاقع لونه. بهذه الزينة دخل الطالبان إلى قاعة المحكمة، ليقلبا طقسا سلطويا رأساً على عقب.

ولقد انفجرا داخل قاعة المحكمة مثل علبة من الألوان، حيث كانوا يطلقون نكاتاً في وقتها المناسب ليصبحا هما سادة الحفل الحقيقيين. فتحول المتهمون بذلك إلى مُتهمين، وخرجت المحاكمة عن مسارها المرسوم. لقد بدأت الأمور بشكل عادي. وبدأ قاضي المحكمة فالتر شفيردتر، الذي كان عمره آنذاك 53 سنة، وهو يعتبر بذلك ممثلاً لجيل الآباء، المحاكمة بالتحقيق مع الاتنين.

القاضي: السيد تويفل. لديك الآن فرصة للحديث عن سيرتك الذاتية.

تويفل: إنني أفق اليوم لرابع مرة أمام المحكمة كمتهم في قضية سياسية. ولقد أصبحت سيرتي الذاتية معروفة بما يكفي، بل أنها معروفة منذ بداية إخراج هذه القضية، الذي فشل بسبب عجز المحكمة.

المدعي العام: من فضلكم، سجلوا بمحضر الجلسة أن المتهم تويفل قال إن المحاكمة الأولى قد فشلت بسبب عجز المحكمة. إنني أطالب بتوقيع عقوبة بالمتهم لاخلاله بنظام المحكمة. تويفل: ... وبما أن المحاكمة الأولى قد فشلت بسبب عجز المحكمة، فإني أرى أنه من الأهمية بمكان، ومن أجل توضيح هذه القضية المعقدة، أن يتحدث أعضاء النيابة العامة والمحكمة عن سيرتهم الذاتية. أرى أن الرأي العام له الحق في معرفة ذلك. وسوف أعبر عن رأيي من حالة إلى أخرى.

القاضي: لست بحاجة لقول أي شيء.

تويفل: لكنني لا أريد أن أسهل عليكم الأمر.

بعد ذلك بلحظات طالبت المحكمة بإخضاع المتهمين لفحص عن طريق طبيب نفسي. وجاء التعليق مباشرة:

تويفل: إنني أوافق على الفحص، إذا ما وافق أعضاء المحكمة والسيد النائب العام أيضاً على الخضوع لنفس الفحص النفسي.

ونتيجة لذلك، انطلق الحضور في تصفيق حماسي وامتلات قاعة المحكمة بالصخب، مما اضطر رئيس الجلسة شفردتنر إلى اخلاء القاعة من الحضور. ولكنه عاد وسمح بعودتهم من جديد فقط بعد التزام خطي من المستمعين بعدم التشويش على سير المحاكمة، التي استمرت بالشكل الآتي:

القاضي: السيدات والسادة الحضور، لقد أخذنا التزامكم بعدم التشويش على مجرى المحاكمة مأخذ الجد. كما نرجوكم ألا تصعبوا علينا مهمتنا ونأمل ألا تخلفوا وعدكم. السيد تويفل، لقد أردت أن تقدم لنا توضيحاً. ولكني أرجو أيضاً أن تتعد عن سلوكك السابق.

تويفل: السيد لانجهانس يريد أن يقول شيئاً.

لانجهانس: (في نبرة ساخرة) لا أعرف إلى أي حد هو مسموح بذلك، لكنني أريد بداية أن أوافق على ما قاله الصديق فريتس، وأضيف على ذلك شيئاً آخرًا. فزيادة على ضرورة القيام بفحص نفسي لأعضاء المحكمة والنائب العام والمتهمين، يتوجب اخضاعهم أيضاً لاختبار للذكاء، والذي يتوجب اعلان نتائجه على العموم!

يعدو أعضاء المحكمة في زعر جلي خارج قاعة المحكمة. ليعودوا مرة أخرى، لحظات بعد ذلك، إلى القاعة، ويحكموا بغرامة على لانجهانس لاخلاله بنظام المحكمة. لكن سلطة هيئة المحكمة اهتزت بشكل كبير، رغم أنه قد تمت في نهاية المطاف إدانة المتهمين. وبالنسبة لثوار الحركة الثقافية عام 1968، كان هذا التهريج الذي وقع بقاعة محكمة ببرلين حدثاً مهماً. لقد أظهر كيف أنه من السهولة إصابة العالم البورجوازي بالارتباك.

لكن إلى أي مصير انتهى أبطال البارحة؟ فريتس تويفل يعمل اليوم كساعي خاص لتوصيل الأشياء بين الأشخاص وبعضهم بالدراجة في برلين. في حين تحول راينر لانجهانس إلى الاهتمام بعلم القوى الكامنة في الأشياء Esoterik. لكنه ظل في نفس الوقت كليبياً. فمازالت الرغبة في الاستفزاز و زعزعة المعايير السائدة تزغزغه. إلا أن موقفه تحول بعد ثلاثين سنة من المحاكمة الأسطورية من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، مثيراً بذلك الفرع لدى صديقه القديم. ففي حديث لجريدة TAZ، عبر عن هذا التحول قائلاً: "الروحانية الجديدة تسمى اليوم هتلر". وحتى في زيارته للحفلات اليسارية التي تحتفي بذكرى حركة 68، يعبر

عن نفس الأفكار، مثيرا الفزع بالضيوف. وفي نفس الوقت، يؤسس حريما، ويوضح في حديثه للجريدة، لماذا يمثل هذا النوع من التعايش إثراء شخصيا لكل المشاركين. إنه فنان في استقزاز الرأي العام، يعرف كيف يؤثر في جمهوره.

ما هي طريقة عمل الاستقزازات؟ غالبا ما تقوم الاستقزازات على نوع من إعادة التقييم للقيم السائدة. فيتم إعلاء المنحط، مثل الكلب فوق النصب التذكاري لديوجين، والحط من السامي. إنه نوع من تطوير الاحساس بمنظومة المحظورات والأعراف التي نتحرك بداخلها. إن الأمر ليس هينا، ذلك أن الأمور البديهية بالذات تستعصي على الفهم. أن حضور البديهة والجرأة من الطبائع الأساسية التي يجب التحلي بها. ذلك أن الشخص الذي يتهجم على المواضيع الاجتماعية القائمة، يتم غالبا استبعاده ومطاردته.

إن الاستقزاز اليوم ليس أمرا هينا كما هو الحال بالماضي. فمجتمع منغلق على نفسه، بنظام قيمي متحجر، يسهل استقزازه بالمقارنة مع مجتمع متعدد ومفتوح. ففي مجتمع يملك فيه المرء حرية أن يفعل ما يريد وينأى بنفسه عما لا يريد، لم يعد الجمهور فيه يندهش لأي شيء البتة. فعملية الاستقزاز تبلى، بل أكثر من ذلك، إنها تخدم نهائيا في التصفيق. ويتحول المستقز إلى مهرج لمجتمع، يعتبره أحد أعضائه. ومع ذلك فإن المرء ما يلبث أن يسمع أحيانا، من آن لآخر، صرخة الاستياء المعروفة منذ آلاف السنين. مما يظهر أنه حتى في مجتمع ليبرالي، مازال بالإمكان المضي قدماً في عملية الاستقزاز.

لعبة: المشي بأقدام حافية

ننتزع أحذيتنا في يوم مشمس لنمشي بأقدام حافية. ليس فقط داخل المنزل ولكن أيضا بالخارج، في الشارع، على رصيف المشاة، بالمدرسة، بالجامعة أو المكتب. ليكتشف المرء بأن سبلا قليلة صالحة للمشي بأقدام حافية. بل إن العديد من سبل التجوال بالغاب، بسبب أنها مفروشة بالحصى، أشبه بأسرة شائكة بالنسبة للأقدام الحافية. ثم أيضا تصلب العضلات في بطن الساق ومفاصل الأقدام! إن الأمر يبدو كما لو أن المرء يمشي للمرة الأولى. ومن ناحية أخرى يتم انعاش بطن القدم. وستمر أيام والمرء يشعر بأقدامه ساخنة.

ويبدو أن تأثير من يمشي بأقدام حافية على عامة الناس أشبه بتأثير انسان عاري البدن. رغم أن الأقدام الحافية ليست بالأمر البذيء، فإنها تبدو في أعين الناس أمرا خليعاً. ومن أجل

معرفة أية قصص عاشها هواة المشي بأقدام حافية، يمكن الاطلاع على عنوانهم بالإنترنت:

www.barfuss.org

وبالفعل يوجد في المانيا العديد من الناس الذين يمارسون هذه الهواية ليس فقط في بعض الأحيان، بل بشكل مستمر. ومن ناحية صحية فإن هواة المشي بأقدام حافية يقولون أن الأمر بلا عواقب تذكر. إن الانسان يتعود بمرور الوقت على الأحجار الحادة والزجاج والمسامير. و أيضاً في الشتاء لا توجد أية أخطار من جراء خلع الأحذية. أن كل ما يجب التحذير منه هو المشي السريع في البرد، وذلك حتى لا تصاب الأربطة بأضرار. ويبدو أن التسامح مع هواة هذا الأمر يختلف من بلد إلى آخر. في فرنسا وألمانيا، تحكي يوليا فيونا في سيرة مشيها بأقدام حافية (و التي يمكن الاطلاع عليها بنفس العنوان على الانترنت) أنها لم تتعرض لأية صعوبات، ولكن الأمر يختلف في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تمت مطالبتها بلبس حذاءها. ولكن كمخضرمة في لمشي بأقدام حافية كانت تعرف كيف تدافع عن نفسها: "عند تواجدي في ربيع سنة 2001 بفلوريدا، دخلت في جدال ساخن مع رجال الشرطة، انتهى باستظهارى لدستور الولايات المتحدة Land of Free...، مشيرة إلى أنه ليس أمرا سليما أن يسمح بحمل السلاح ولا يسمح بعدم لبس الأحذية. ومنذ ذلك الوقت لم يتم ازعاجي مرة أخرى".

مراجع

حول ديوجين (أصله من سينوب) يتحدث فيلسوف يحمل نفس اسمه هو ديوجين اللايرتي، في كتابه "حياة وأفكار مشاهير الفلاسفة"، الذي ألفه تقريبا في القرن 3 بعد الميلاد. (من الترجمات الألمانية لهذا الكتاب، الترجمة التي صدرت عن دار Reclam، لايبزيغ 1997). بعض التفاصيل الأخرى يقدمها الفصل 20 من كتاب "نبذة عن تاريخ الفلسفة (في جزئين)، بازل 1998. وحول تطبيق الاستفزاز يمكن العثور على بعض الأسئلة والأفكار المهمة في كتاب إدوارد دي بونوس Denkschule الصادر عن دار Landsberg سنة 1986، وأيضا في كتابات أخرى لدي بونوس. أما يورجن فريزه فقد كتب نظرية توضيحية للاستفزاز: "الاحتجاج كبداية للتفلسف، بالمجلة الفصلية للبيداجوجيا العلمية 2003، الصفحات 166-183.

14- القلب Umkehren

قل لي فكرتك، فأصنع منها فكرة ثانية، لم تكن لتحسب لها حساباً. إذا ما عرفت لأول مرة رأياً معيناً، فإنه من السهل أن أصنع منه رأياً آخراً. إن الأمر أشبه بالكولاج السوربالي، الذي يصنع من مواد لقيطة، مختلفة، عملاً مدهشاً وساحراً. أهم شيء في الأمر، هو أن يكتفي المرء فقط بالمواد التي وجدها، ويصنع منها شيئاً جديداً، عن طريق إعادة ترتيب تلك المواد، إعادة تقييمها، وقلب عاليها بسافلها.

وهنا مثل لعشاق موسيقي الروك فرانك زابا (1949-1993). لنبدأ أولاً بالقصة. لقد دُعِيَ زابا للمشاركة في برنامج تلفزيوني يديره شخص يدعى جو باين. وجو باين هذا، كان معروفاً بطريقته السيئة النية في إدارة الحديث. ولم يكن من غير المؤلف أن يقدم أحد الضيوف للمشاهدين، ليبدأ مباشرة بعد ذلك بكيل الشتائم لموهبته، شكله الخارجي أو قناعاته. بعض الناس يعتقدون أن طريقة باين الجارحة في الكلام تعود إلى واقعة بتر ساقه، التي نغصت عليه حياته. لكن آخرين يرفضون هذا الاعتقاد، ويرون بأنه أصلاً رجل شرير. وقد تمت دعوة زابا للمشاركة في هذا البرنامج في بداية الستينات، في وقت كان فيه الشعر الطويل لدى الرجال أمراً غير مألوف. وبعد تقديمه إلى الجمهور، بدأ الحديث بتبادل للضربات على الشكل الآتي:

جو باين: إنني أعتقد أن شعركم الطويل يصنع منكم فتاة.

فرانك زابا: وأنا أعتقد أن ساقكم الخشبية تصنع منكم طولة.

رد زابا كان رائعاً. بالطبع كان بإمكانه أن يقول: "لماذا تحكمون على الناس من خلال مظهرهم الخارجي؟" لكن كم كان سيبدو ذلك الجواب مملاً ومرتبكاً! وبدلاً من ذلك، يحتضن نموذج باين ليرده إلى نحره. جملة زابا لها نفس بنية جملة مقدم البرنامج. ولكن تم استبدال كلمتين فقط. لكنهما غيرا المعنى. وهذا ما أكسب جوابه ذلك الذكاء. والجملة في حد ذاتها - وفي استقلال عن جملة باين الخبيثة - كانت ستبدو أقل مرحاً. فقط في سياق السؤال التمهيدي تكتسب قوتها. وهذا شيء مميز لعمليات القلب. إنها تحتاج إلى منط. وهذا ما يكشف عنه المثال الثاني. إنها نكتة بريئة لـ أويجن روث (1895-1976):

رأى انسان لحظة غضب عارم

أنه لا وردة بدون شوك

لكنه سيغضب أكثر حين يرى

أن هناك أشواكا كثيرة دون ورود.

الأمر لا يتعلق في هذه النكتة بجواب خبيث. إن روث يصنع من مثل شعبي، مثلا جديدا. وينجز ذلك بطريقة، تجعل القولة الثانية: "أن هناك أشواكا كثيرة دون ورود" من ناحية شكلية تقريبا أشبه بالأولى. العناصر المعطاة يتم نقلها إلى نظام جديد عن طريق تغييرات بسيطة. ليخرج من ذلك معنى جديدا ومدهشا. وهنا أيضا تتغذى قوة الجملة: "أشواك كثيرة دون ورود" على مقدمة النكتة، لتفقد طرفتها في غياب هذه الخلفية. وتميز هذه البنية المزدوجة عمليات القلب: إنها تربط القديم بالجديد، المعروف بالمجهول، لتبدو في النهاية بذلك الشكل الخلاق والمدهش.

وبالنسبة لعمليات القلب هناك الكثير من الصفات: فيمكن أن نتخلى عن بعض العناصر في المقدمة، كما أنه يمكن أن نضيف عناصر أخرى إليها، وبالإمكان أيضا تفسير تلك العناصر بطريقة مغايرة أو إعادة تقييمها أو تغييرها (والأكثر تداولاً في هذا السياق، الشكل التالي: بدلا من أ هو ب: ب هي أ). بعض هذه الإمكانيات سأوضحها في الأمثلة التالية. لكن لنتوقف بداية عند إعادة الترتيب! إن الأمر يظهر بوضوح في الأمثلة والحكم. فبقليل من الجهد يمكن تغيير العناصر في هذا السياق. وإليك مختارات من بعض الأمثلة المشهورة:

- تعلم أن تتألم دون أن تشتكي.

- لا مقابل بلا عمل.

- أفضل أن يكون المرء فقيرا ومعافى على أن يكون غنيا ومريضا.

عبر تغييرات بسيطة، يمكن أن نصنع من هذه الأمثلة أمثلة جديدة:

- تعلم أن تشتكي دون أن تتألم.

- لا عمل بدون مقابل.

- أفضل أن يكون المرء غنيا ومعافى على أن يكون فقيرا ومريضا.

الأمثلة الجديدة تؤثر فقط بشكل ظريف (إلى حد ما) على الذي يعرف الترتيب الأصلي لها.

لاستعمال الذاتي

وعمليات القلب المفضلة، هي تلك التي تطبق على محور الأنا - الأنت من أجل قلبه. بإمكان المرء أن يطبق هذا الأسلوب في مجالات عديدة، خصوصا إذا كان الأمر يتعلق باختبار صحة مطالب ودعاوي، يوجهها آخرون إلينا. وهكذا يمكن لمرء أن يتحول من مرؤوس إلى رئيس. فلنأخذ على سبيل المثال الحوار التالي بين تلميذ وأمه:

السيدة ماير: والآن عليك أن تشرب حليبك: كم هو لذيذ!!!

الطفل: كل صباح حليب!

السيدة ماير: لكنه جد صحي!

الطفل: لكني لا أحب الحليب!

السيدة ماير: وفي الحليب الكثير من الفيتامينات!

الطفل: إذن، لماذا لا تشربين أنت أيضا حليبيا، مادام فيه الكثير من الفيتامينات؟

جواب مقنع. فما هو أكثر طبيعية من محاولة التحقق إذا ما كانت التعاليم التي تعطى لنا، يتم فعلا اتباعها من طرف أصحابها؟ الإبن لا يرتب الكلمات بشكل جديد، بل إنه يستبدل الأدوار. ومرسلة الرسالة تتحول إلى مستقبلة لها. الرسالة نفسها لا تتغير. "عد" بداية من نفس "الباب". هذه هي الحكمة المتداولة التي تحقق عملية الاستعمال الذاتي. وينصح أن يتم تطبيقها كلما بدأ الآخرون بإلقاء أوامر غير مرغوب فيها.

سيناريوهات

إن عمليات القلب تجعل العالم يظهر بشكل جديد. لقد تحولت النقلة الكوبرنيكية منذ زمن إلى صيغة متداولة. فنيقولا كوبرنيك عمل على إعادة توزيع الأدوار بين الأرض والشمس. فلم تعد الشمس هي التي تدور حول الأرض، ولكن الأرض حول الشمس. لقد استعمل كوبرنيك نفس العناصر التي حددت الفكرة القديمة للعالم: شمس، أرض، كواكب. إلا أنه كتب لهذه الشخصيات الرئيسية في مسرح العالم سيناريو جديد (بالمعنى الحقيقي للكلمة).

كُتَّاب سيناريو آخرون اختطوا هم أيضا لأنفسهم نفس النهج. وهكذا اعترف مثلا ألفريد

هينتشوك (1899-1980) في حواراته مع فرانسوا تريفو (1932-1984) - حتى نقوم

مباشرة بقفزة كبيرة في الزمن - باستعماله نفس المنهجية. والأمر هنا لا يتعلق بشمس و قمر

وكواكب، ولكن بعملية قتل. يحكي هيتشكوك: "يأتي رجل إلى مكان، حيث ربما سيتم قتله. كيف تم ذلك عموماً؟ ليلة مظلمة في مفترق طريق ضيق بمدينة. الضحية يقف إلى جانب عمود مصباح كهربائي. بلاط الشارع مازال مبتلا من مطر البارحة. صورة مكبرة عن قطة سوداء تمشي بمحاذاة سور. وخلف نافذة بناية مقابلة يظهر وجه رجل غير واضح الملامح يطل إلى الخارج. وفي ببطء تقترب سيارة ليموزين سوداء، الخ.... سألت نفسي: ما هي الصورة المعاكسة لهذا المشهد؟ منطقة خالية في وضح النهار، لا موسيقى، ولا قطة سوداء، ولا وجه غريب يطل من خلف النافذة! ونتيجة هذا، كانت المشهد المشهور من فيلم هيتشكوك الثالث الغير مرئي، الذي تمت فيه مهاجمة كاري جرانت في حقل مفتوح من طرف طائرة.

كيف يمكن للمرء أن يدحض حتى اينشتاين نفسه

حتى في الأشكال الصغيرة للأحاديث والمحاورات والمراسلات يصادف المرء دائماً عمليات القلب. وهناك، يبدو الاستعمال الذاتي خاصة لهذه العمليات مرغوباً فيه. وهنا ثلاثة أمثلة كلاسيكية عن ذلك:

1- جاء كتاب عمانويل كانط (1724-1804) نقد العقل المحض، ليضع حداً لغرور الفلسفة. فقبل كانط لم يكن المفكرون يتورعون عن إصدار أحكام حول العالم والإله. لقد انتقد كانط هذه الأفكار معتبراً إياها مفارقة، وسخر منها ووضع في صرامة حداً لها. لقد تم التفكير قبل كانط دون الاستناد إلى التجربة. ولهذا وجب وضع حد لذلك للأبد. صديق جوته فريدرش ياكوبي

(1743 - 1819)، الذي تطور من نصير متحمس لكانط إلى معارض متحمس له، كان أول من اكتشف أن كانط نفسه أصدر أحكاماً على مواضيع نظرية لا يمكن التأكد من صحتها تجريبياً. وهكذا ذهب كانط إلى أن "الأشياء في ذاتها" لا يمكن معرفتها. ولكن في المقابل يعتقد أيضاً، أنها تؤثر بمخيلتنا. فهي التي تنتج عنها، حسب كانط، الانطباعات الحسية التي نملكها. كيف أثبت ذلك؟ إنه لمن الصعب ملاحظة كيف يؤثر الشيء في ذاته على حواسنا. إن الأمر يتعلق هنا باعتبار خالص. إن كانط يتبع هو أيضاً نفس الأسلوب الذي انتقده عند الآخرين. ليخلص ياكوبي إلى القول: "يتوجب أن أعترف أنني توقفت كثيراً عند هذا الاعتراض، أثناء دراستي للفلسفة الكانطية...، لأنني كنت أشعر دائماً بالارتباك أمامه، ذلك

أنه بدون هذا الافتراض (أن الأشياء في ذاتها غير المعروفة، تؤثر بالمخيلة) لا يمكنني أن أُلج إلى النظام، وبحضور هذا الافتراض لا يمكنني البقاء بداخله. " هذا الاستدلال يحسب على الانتقادات الكلاسيكية التي وجهت إلى كانط. وما زالت تستعمل حتى يومنا هذا.

2- من المبادئ الأساسية للفلسفة التحليلية، التي كان رودولف كارناب (1891-1970) أحد مؤسسيها، المبدأ الذي طرحه، والمعروف بمعيار المعنى الامبريقي. والذي يقول أن مقولة ما، لا تملك معنى إلا إذا كانت صادرة عن تجربة (حوادث)، أو إذا كانت من طبيعة منطقية خالصة. ذلك أن المقولات المرتبطة بالتجربة يمكن التأكد من صحتها، في حين يمكن الكشف عن الصحة الداخلية للأساليب المنطقية عن طريق إخضاعها لفحص رياضي. وهكذا بإمكان المرء في الحالتين أن يتأكد من مضمون المقولة. وبنفس هذه الطريقة يتم التحقق من فرضيات العلوم الطبيعية. لكن الأمر يختلف غالباً فيما يخص المقولات الفلسفية. كيف يمكن للمرء أن يختبر صحة آراء حول العالم والإله والروح؟ وتبعاً لذلك تنادي الفلسفة التحليلية بالهجوم على الميتافيزيقا. مدعية أنها مفرغة من كل معنى. أن نزع القيمة الراديكالي هذا عن تقليد فكري كبير كان له وقع كبير، لكن السؤال يظل مفتوحاً: أية أهمية يملكها معيار المعنى هذا في حد ذاته؟ واضح أنه ليس امبريقياً كما أنه ليس منطقياً خالصاً، لتظل هناك إمكانية واحدة: إنه هو أيضاً ميتافيزيقي، وبالتالي مفرغ من كل معنى.

3- لما توفي صديق ميشيل بيسو، كتب أينشتاين (1879-1955): بالنسبة إلينا كفيزيائيين مؤمنين، فإن الفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل لا يعنى إلا وهما عنيداً". إن نظرية النسبية العامة لأينشتاين، التي حددت مفهوم الحاضر بشكل جديد، تقف خلف هذه المقولة مثل صخرة هائلة. لكن على المرء ألا يشعر بالعجز أمام ذلك. فقد أوضح الفينومينولوجي هيرمان شميتس أنه يمكن أيضاً تطبيق منهجية الاستعمال الذاتي بشكل ناجع ضد أينشتاين نفسه. وكعالم، هكذا يستدل شميتس، فإن أينشتاين عليه أن يكون مستعداً للتعلم. وإرادة التعلم تعني أنه يتوجب على المرء أن يكون مستعداً لإمكانية أن يدرك شيئاً في المستقبل لا يعرفه اليوم. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أخذ المرء بعين الاعتبار الاختلاف بين الحاضر، الذي يعني الآن، والمستقبل، الذي سيأتي، وألا يفهم هذا الاختلاف على أنه وهم. وكلما تحدث أينشتاين عن هذا الأمر، فعليه أن يأخذ هذا الاختلاف في الحسبان ولا يغض الطرف عنه، دافعاً به إلى الهامش.

هذا يظهر أن منهجية الاستعمال الذاتي قد تم تطبيقها كثيرا في الواقع في الفلسفة. بل إن هناك فلاسفة يؤكدون أنها المنهجية الفلسفية الأكثر مركزية على الإطلاق. لكنها في الواقع تتحلى، كأشكال القلب الأخرى أيضا، بالميزة المغربية؛ ميزة أنها تتطلق فقط من المواد التي يقدمها المحدث. وكلما كانت كلمات الآخر متحمسة وماندفة، كلما فرقت بقوة إذا ما تم اخضاعها لعملية قلب تجعل عاليها سافلها.

تحويل

تظهر الحجج دائما في مجال محدد. وينتج عن ذلك شكل آخر من أشكال القلب؛ يتمثل في تفسير الحجج بطريقة جديدة. وهنا أيضا تستعمل فقط المواد التي قدمها لنا الآخر، لكن يتم وضعها في سياق جديد. والطريف ينتج عن المقارنة بين الرواية الأصلية للفكرة وشكل روايتها الجديد.

أفتبس مثلي من النقاش حول ما سمي بالرهان الباسكالي. عن طريق هذا الرهان حاول الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال (1623-1662)، الذي انصب اهتمامه على رياضيات لعبة الحظ، التي انبثق عنها فيما بعد حساب الاحتمالات، أن يقنع الناس بصواب الاقتناع بطريقة الحياة المسيحية. لقد دعا الانسان إلى أن يعيش حياته كما لو أنه جد متأكد من حقيقة وجود الله. ذلك أنه حتى إذا تم اكتشاف عدم وجوده في النهاية، فحسب باسكال، لا يمثل ذلك أدنى خسارة. ولكن إذا ثبت أنه موجود، فسيكون الانسان قد ربح ربحا لا حد له! الحياة الأبدية. والتضحيات التي على المرء أن يقدم عليها خلال حياته على الطريقة المسيحية، تبدو أمام ذلك الربح اللانهائي ليست فقط قليلة ولكن منعدمة. أو، كما عبر باسكال عن ذلك: "إذا ما ربحتم، ربحتم كل شيء، وإذا ما خسرتم، لم تخسروا شيئا. فلتراهنو إذن، ودون تردد، على وجوده."

وعلى الأقل استطاع باسكال أن يقنع شخصا واحدا بفكرته: فهو نفسه قد عاش فعلا عيشة مسيحية، وتخلّى في خريف عمره عن كل أبحاثه العلمية وانتقل للعيش بالدير. برهانه هذا أثر باسكال بالكثير من معاصريه. لقد بدت فكرته كبديل لأدلة وجود الإله الاشكالية: رياضية وأنيقة، ومقنعة. وحتى يومنا هذا مازالت تستعمل في الحملات التبشيرية للكنائس. وعالم الرياضيات جان فون نويمان

(1903-1957) الذي اعتنق المسيحية، أوضح بأن قراره هذا، كانت له علاقة كبيرة ببرهان باسكال. وطبعاً فقد حسب فون نويمان قضية العلاقة بين المتع الأراضية والحياة الخالدة بطريقة جيدة. ليجعلهم يعمدوه فقط وهو على فراش الموت. وإن كان هذا الأمر يتوافق مع المعنى الذي قصده باسكال، يظل سؤالاً مفتوحاً. وعلى كل حال فإن معاصري باسكال قد وجدوا وصفاً ضد برهانه الحاذق. لقد استعملوه في سياق جديد، وبحثوا من يستطيع أيضاً أن يدعو لدينه اعتماداً على هذا البرهان، وهكذا يرى فيلسوف الأنوار دينيس ديدرو (1713-1784) أنه يمكن أيضاً الدعوة إلى الإسلام اعتماداً على هذا البرهان: "امام المسجد يمكنه أيضاً الاستدلال بهذه الطريقة" وهنا تكمن فعلاً مشكلة في الاستدلال الباسكالي. فبنفس الطريقة يمكن لمسلم أن يدعو إلى دينه وأيضاً بالنسبة لكاهن من كهنة الاستك أن يقنع الآخرين بطقس التضحية بالبشر. وكل من يريد أن يقنع الآخرين بدين معين يمكنه استعمال الرهان الباسكالي، وإذا كان الأمر على هذه الحال، فإن الرهان لا ينفع، على الأقل، كبرهان على صحة دين معين كما كان يهدف إلى ذلك باسكال. ومع التغيير الفجائي للسياق يفقد الرهان الكثير من قوته الأصلية.

ويمكن أن نشق درساً عاماً من هذا المثال: عند كل برهان يكونه الإنسان، عليه أن يتساءل: لأي شيء يمكنني أن أستعمل هذا البرهان أيضاً؟ فاستعمال البراهين في غير موضعها أضحى من الأمور الضرورية.

ويمكن أن نجد في أمنا الطبيعة مثلاً جيداً على ذلك، ذلك أن قدرتها الخلاقة لا ترجع إلى خلقها لأشياء جديدة، ولكن أكثر إلى إعادة الخلق المستمرة لما هو موجود. ويمكن أن نسمي ذلك نوعاً من العمل على مواضيع حية: فتحول مثلاً مفصل فك إلى عظمة أذن وكيس أمعاء إلى رئة. العمود الفقري يستخدم عند الحوت لتحريك الذيل، وعند الإنسان لحمل الرأس بطريقة سليمة.

H2O (الصيغة الكيميائية للماء) والفكر المقلوب

وفي النهاية نلقي نظرة أخرى على العلوم الطبيعية: ذلك أن عمليات القلب تشارك هنا أيضاً في سيرورات الخلق. وهكذا يدين اكتشاف الصيغة الكيميائية للماء لعملية قراءة مغايرة.

هامفري ديفي (1745-1827) كيميائي انجليزي، سمع سنة 1800 عن الأعمدة الغريبة التي بناها زميله أليساندرو فولتا

(1745-1827). لقد كانت تتكون من صفائح مأخوذة من مواد مختلفة، وفيما بينها تم خلط كرتون بماء مالح. الآلة كلها كانت بحجم غرفة. وحتى اختراع فولتا لم يُمكن من إنتاج الضوء بشكل مستمر. واعتقد ديفي أيضا أن الضوء نتيجة تفاعلات كيميائية. الكيمياء تصنع الضوء! ليتابع قائلًا بأن العكس أيضا لا بد أنه صحيح: أن يصنع المرء الكيمياء بالضوء. وفعلا فقد أثبتت هذه الفكرة نفسها كفكرة خصبة للغاية. لقد تمكن ديفي من أن يُقسّم الماء عبر الضوء إلى مكوناته، وتمكن من التدلّيل على أن الهيدروجين والأكسجين يلتقيان ببعضهما دائما عند حجم معين. أساس أهم صيغة كيميائية (صيغة الماء) تم التحقق منها. وإضافة إلى ذلك، ساهمت منهجية ديفي في اكتشاف البوتاسيوم والصوديوم وعناصر أخرى، لتساعد بذلك في وضع أسس النظام الدوري. وقد لقيت محاضرات ديفي احتفاء شعبيا كبيرا. فالكاتبة الشابة ماري شيلي (1797-1851) كانت جد معجبة بمحاضراته، حتى أنها فيما بعد، وفي روايتها فرانكنشتاين، سوف تسرد فقرات كاملة لديفي على لسان البروفيسور فالدمان (الأستاذ الحكيم والطيب للدكتور المتحمس فرانكنشتاين الذي سيقتله بعد ذلك مسخه).

لعبة: الوقوف على الرأس

- 1- إن الذي يحاول لأول مرة، يهتز ويترنح، ويحس بنفسه كما لو أنه طفل يقف لأول مرة على قدميه. فبدون دعامة ينثني المرء بسهولة، ويسقط إلى الخلف. لهذا يتوجب على المرء في البداية أن يستند إلى جدار، وأن يتصرف بالشكل التالي:
- 2- انحني ثم ضع وسط رأسك على الأرض وأرسل يديك خلف رأسك، ثم استند إلى حافة كفيك وسواعذك.
- 3- الارتفاع بالعجز، إقامة الركبتين، والخطو خطوات صغيرة بالقدمين باتجاه الرأس.
- 4- الوقوف على الرأس والبقاء دون حراك لمدة 10 إلى 15 دقيقة. ويمكن أن يستمر الأمر إلى ثلاثة دقائق عند المجربين.
- 5- انزال الأقدام مرة أخرى.

6- هذا التمرين يحرر الطاقات الكامنة، كما يقول معلمو اليوجا، ويؤكد ذلك أيضا الأطباء: فالأعضاء التي لا يتسرب إليها الدم إلا قليلا في الوضع الطبيعي، يتم إمدادها في عناية بالأكسجين في وضع الوقوف على الرأس.

مراجع

رغم أن عملية القلب منهجية كثر استعمالها. إلا أن الدراسات حولها نادرة. وقد طور بيتر فيسل نموذجا، يوضح كيفية تفسير عمليات القلب (أو العكس) في كتابه:

Von der Struktur des Witzes zum Witz der Struktur: Untersuchungen zur Pointe in Witz und Kurzgeschichte, Heidelberg 1989.

وفي الفصل الخاص بليشتنبرج من كتاب جير هارد نويماس:

Ideenparadiese, Untersuchungen zur Aphoristik von Lichtenberg, Novalis, Friedrich Schlegel und Goethe, München 1976

يجد القارئ توضيحات لتقنيات القلب. ومن المهم معرفة كيفية اشتغال عمليات القلب في المناهج الإبداعية الجديدة. هـ. يوبله يعطينا فكرة عن الموضوع في مقاله:

Kreativität und Kreativitätstechniken, in: E. Gaugler, W. Weber (Hg.), Handwörterbuch des Personalwesens, Stuttgart 1992.